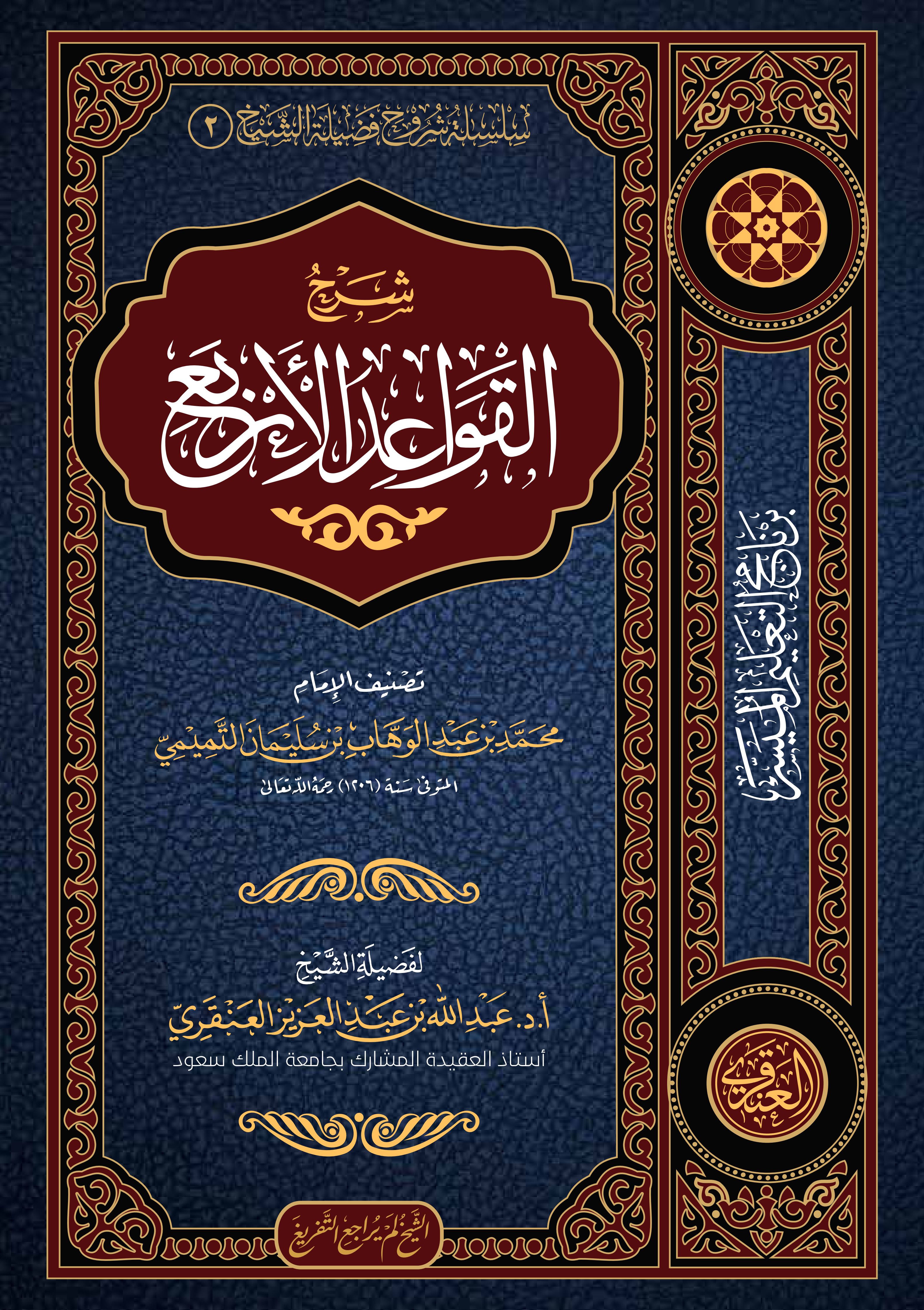


سلسلة شروح فضيلة الشيخ (٢)
شرح
القواعد الأربع
تصنيف الإمام
محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي
المتوفى سنة (١٢٠٦) رحمه الله تعالى
لفضيلة الشيخ
أ.د. عبد الله بن عبد العزيز العنقري
أستاذ العقيدة المشارك بجامعة الملك سعود
الشيخ لم يراجع التفريغ
العنقري





   alanqri  drangari

للإعلام بالأخطاء الطِّباعية والاستدراكات والاقتراحات؛

يرجى المراسلة على البريد التالي:

tafreeghalangri@gmail.com



شرح القواعد الأربع

تصنيف الإمام

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

المتوفى سنة (١٢٠٦) رحمه الله تعالى



لفضيلة الشيخ

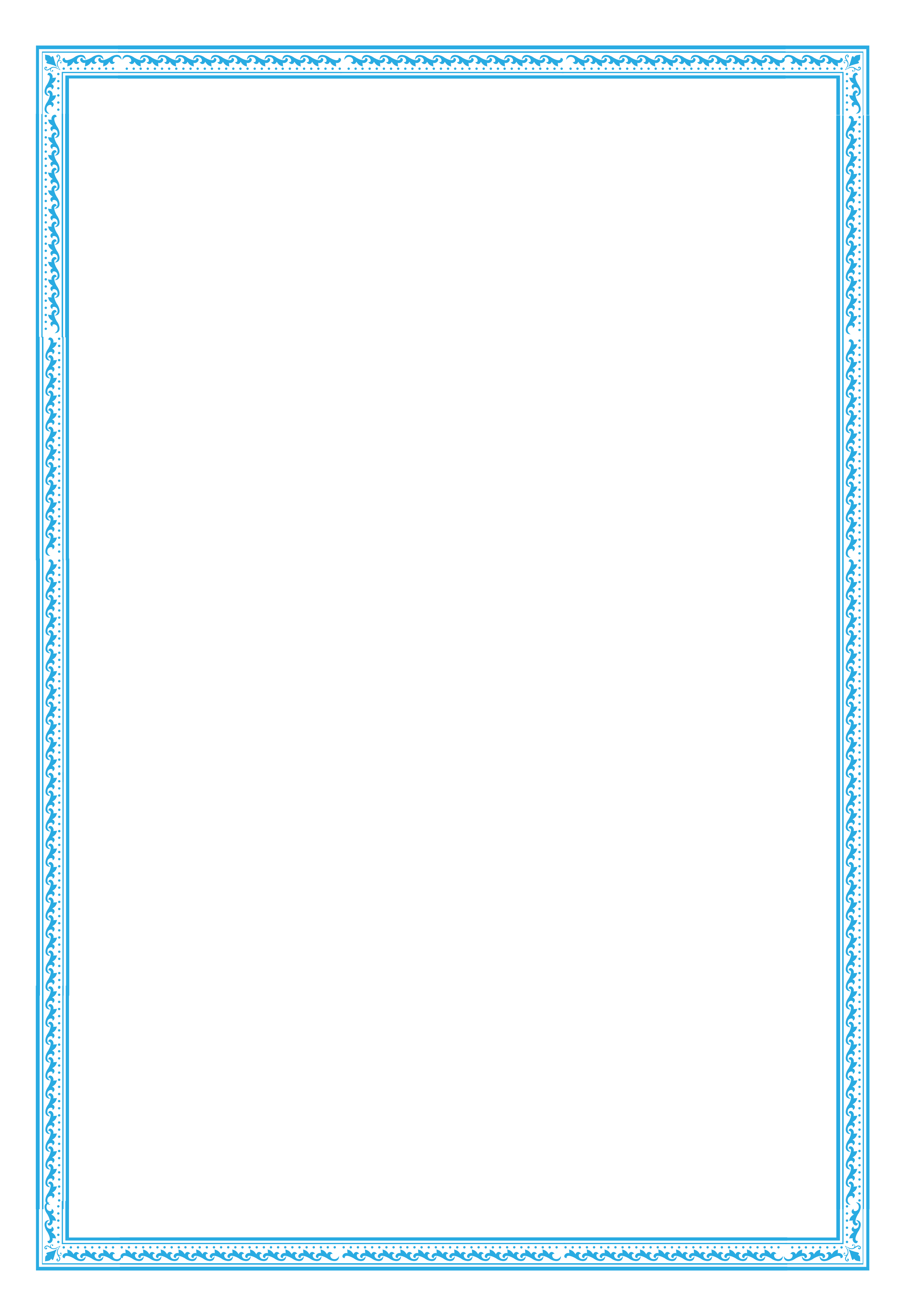
أ.د. عبد الله بن عبد العزيز العنقري

أستاذ العقيدة المشارك بجامعة الملك سعود



النسخة الأولى







المُقَدِّمَةُ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أَمَّا بَعْدُ:

فهذا المجلس الأول في شرح الكتاب الثالث من برنامج التعليم الميسر، والكِتَابُ الثَّالث هو «**القَوَاعِدُ الأَرْبَع**» للإمام محمد بن عبد الوهاب التميمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المتوفى سنة ست بعد المائتين والألف من الهجرة، والمقام في مسجد النخيل في مدينة الرياض، عصر الجمعة في الثامن من جمادى لعام ستة وثلاثين وأربعمائة وألف من الهجرة، ويشرح الكتاب فضيلة الشيخ الدكتور عبد الله بن عبد العزيز العنقري وفقه الله تعالى.





الشَّرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أَمَّا بَعْدُ:

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: « **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ؛ فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثُ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ**».

بعد أن سمى الله تعالى، وتقدم الكلام على التسمية في الكتاب السابق، دعا أيضًا للقارئ والمستمع فقال: «**اسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يتولاك في الدنيا والآخرة**»، وهٰذه فيه التنبيه للداعي إلى الله عَزَّوَجَلَّ إلى الترفق بالسامعين ومن يقرؤون كتابه، ومن يسمعون خطبته، أن يترفق بهم، وأن يحسن الألفاظ بالتعامل معهم؛ ولهذا بدأ هٰذا الكتاب بما بدأ به «**الأصول الثلاثة**» بالدعاء لمن يستمع ولمن يقرأ، «**أن يتولاك في الدنيا والآخرة**»، وفي الحديث في دعاء القنوت: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ**» فإذا تولى الله عَزَّوَجَلَّ العبد سعد في الدنيا والآخرة.

❁ **قال المؤلف: «وأن يجعلك مباركًا أينما كنت»**.

هٰذا جزء مما ذكر الله تعالى عن عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين تكلم في المهد ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] ولا شك أن بركة الأنبياء ليست كبركة غيرهم على أنبياء الله الصلاة والسلام؛ لكن كون الإنسان يكون مباركًا أين ما كان على من حوله من أهلٍ وذريةٍ وجيران، ومن إخوانه المسلمين؛ وحيث ما رحل هٰذا هو وضع المسلم السوي السليم؛ أنه كالغيث حيث ما وقع نفع.

المسلم نافع، المسلم فيه خير، كلما وصل إلى موضع نفع الله عَزَّوَجَلَّ به أهل هٰذا الموضع؛ حتى إنه قد

يصل إلى موضع فيه كفار فينفعهم الله عَزَّوَجَلَّ به فيهديهم على يديه، فالمسلم حيث ذهب كالغيث حيث ما وقع نفع.

قال المؤلف: «وأن يجعلك ممن إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر؛ فإن هؤلاء الثلاثة عنوان السعادة».

الموفق لأن يكون مطيعًا لله عَزَّوَجَلَّ في سائر أحواله هو المؤمن الذي أكرمه الله ببلوغ درجة الإحسان؛ فإن هو أُنعم عليه استعمل عبادة الشكر، وإن هو ابتلي في نفسه أو في ماله أو في أهله استعمل عبادة الصبر، وإن هو وقع في ذنب من الذنوب؛ فإنه يعود إلى الله تعالى ويستغفر.

والاستغفار: هو طلب المغفرة؛ لأن السين والتاء للطلب استغفر، أي: طلب المغفرة، مثل استسقى طلب السقيا؛ فالموفق لهٰذه في الأحوال معنى ذلك أنه وفق لإحسان العبادة، وإحسان العبادة درجة عالية جدًا حتى إن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أوصى معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أن أخبره بأنه يحبه أن لا يدع دبر الصلاة المكتوبة أن يقول: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»؛ فالذكر يحتاج العبد إلى أن يُعان عليه، والشكر يحتاج أن يُعان عليه، وإحسان العبادة الذي يبلغ به المؤمن درجة الإحسان الذي هو أعلى درجات أهل الإسلام يحتاج أن يُعان عليه، «اللّٰهمَّ أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

والإنسان بين أحوال إما أن يبتلى؛ وإما أن ينعم عليه، وفي تقلبه وأحواله إما أن يكون مطيعًا وإما أن يكون عاصيًا؛ فإذا ابتلي فصبر فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر]، وإذا أُنعم عليه ولم يبطر ولم يغتر وإنما استعمل عبادة الشكر فهو من القلة القليلة الخلص من عباد الله الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ]، أما أكثر الناس فكما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦١﴾ [غافر]؛ فأكثر الناس لا يشكرون، وإنما يشكر القلة القليلة وهم الذين قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ].

وأما الذنب فإن العبد يلم بالذنوب ووقوعه في الذنب هٰذا مما لم يعصم منه؛ ولكن الموفق المعان الذي إذا وقع في الذنب رجع وتاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وأناب، وقد قيل للحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الرجل يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب إلى متى؟ فقال: «**ما أعلم المؤمن إلا هكذا**»، إذا وقع إنسان في ذنب ما الحل؟

ليس أمامه إلا حل واحد وهو أن يتوب ويستغفر، ولا يقال له لو كررت الذنب؛ إنك ينبغي أن تنفض اليد منك، وإن ترددك هكذا على الذنب على هٰذه الطريقة ينبغي أن لا تُعان على نفسك، وأنت ممن استحوذ عليهم الشيطان فلا نعينك، لا، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الرجل الذي جلد وتردد به إلى النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي كل مرة يجلده فلما لعنه أحد الصحابة قال: «**لا تلعنه، لا تكونوا أَعْوَانُ الشَّيْطَانِ عليه**» فكل من أذنب وقال: إني فعلت هٰذا الذنب وعدت إليه، ثم فعلته وعدت إليه؛ فيقال لو فعلته ألف مرة فلا فتوى لك إلا واحدة وهي أن تعود، لا يمكن أن تفتى بأن يقال ما دمت تتردد على الذنب على هٰذا الحال فلا خير فيك، واعمل ما شئت -معاذ الله-، بل يقال له: ولو عمل الذنب ألف أو عشرة آلاف أو مائة ألف مرة يقال عد وتب، واحرص أن لا تقبض وتلقى الله تعالى وأنت غير تائب، فلهذا يقول: وإذا أذنب استغفر.

قد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في وصف عباده المؤمنين الموفقين أنهم قد يطيف بهم الشيطان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف]؛ فيصيب المؤمن شيء من الذنب الذي يخطئ فيه، وهكذا لما ذكر الله أحواله عباده المؤمنين الموفقين قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران]؛ فالعبد إذا وقع في شيء من هٰذه الذنوب عليه أن يتوب؛ فالموفق لهذه الأحوال الثلاثة يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**هٰذه عنوان السعادة**»، وصدق، كلام دقيق للغاية، السعادة كل السعادة أن تكون مستعملًا العبادة المناسبة للحال الذي أنت فيه؛ فتكون شاكرًا عند النعمة، صابرًا عند البلية، عائدًا تائبًا مستغفرًا عند الخطيئة، وعند الطاعة تكون ثابتًا مثبتًا من وفق لهذا فإنه قد نال السعادة.

۞ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ: أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ**».

هٰذا تفسير للحنيفية، تقدم أن الحنيفية من الحنف، والحنف هو الميل، وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حنف بمعنى أنه مال، مال عن ماذا؟! مال عن الباطل فكان حنيفًا، وقد ثبت في البخاري أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما دخل قرية وكان فيها جبار من الجبابرة أن إبراهيم قال لزوجه سارة: «**والله إن على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك**»؛ فدل على أن الأرض كانت مليء بالكفر وأهله؛ فكان حنيفًا عنهم مائلًا عنهم أجمعين، ولن يتحقق للإنسان الحنيفية إلا إذا كان على علمٍ وبصيرة؛ لأن بعض الناس قد يظن أنه

على صواب، وأنه قد حنف عن الباطل، وهو راكب واحدًا من أبواب الباطل ولا سيما الخوارج، الخوارج يظنون أنهم قد حنفوا بمعنى أنهم مالوا عن أهل الباطل، ولهذا يزايلون الجماعة ويفارقونها، ولم يعلموا أنهم واحدة من الفرق التي ينبغي أن يحنف عن طريقهم أي: أن يمال عن طريقهم؛ لأن الخارجي قد يتصور إنه على الصواب وأن الطريق الذي سلكه في مزايلة الجماعة ومفارقتها هو الصحيح، يقال أبدًا أنت على طريقٍ باطل، كما أن الرافضة على طريق باطل، والجهمية على طريق باطل، ومخرفوا الصوفية على طريق باطل، وأهل البدع والضلالات على طريق باطل، ينبغي أن يُحنف عنكم كلكم، أن يُحنف عن هٰذه الأباطيل كلها؛ ولهذا الحنيفية لا يمكن أن تتحقق إلا لمن كان عند علم وبصيرة، أو يسأل أهل العلم والبصيرة فيبصرونه، أن الحنيفية ملة إبراهيم ما هي؟ أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين، وتقدم في «**الأصول الثلاثة**» أن هٰذه هي دعوة الرسل جميعًا عليهم الصلاة والسلام؛ فالرسل متفقون على عبادة الله وحده لا شريك له.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شأن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بيانًا لكونهم جميعًا متفقون على أمر التوحيد: «فالرسل في التوحيد في هٰذا الدين دينهم دين واحد لم يختلف منهم عليه اثنان، دين الإله اختاره لعباده ولخلقه هو قيم الأديان، فمن المحال أن يكون لرسله في وصفه خبران مختلفان»، لا يمكن يأتي نوح بعقيدة تختلف عن عقيدة إبراهيم أو عقيدة محمد فعقيدتهم واحدة، فالرسل في التوحيد متفقون جميعًا، دينهم واحد كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ : دِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى**»؛ ولهذا ينبغي أن تتعلم العلم حتى تعلم هل أنت قد حنفت أي: ملت على الباطل، أو أنت على واحدٍ من طرقه.

۞ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخلْقهمْ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]».

«**بذلك**» -أي بالحنيفية هٰذه- أمر الله عَزَّوَجَلَّ جميع الناس ولم يخص أحدًا منهم دون أحد، الكل مأمورون جميع بني آدم مأمورون بالحنيفية، بل الجن والإنس كلهم مأمورون بالحنيفية التي معناها عبادة الله وحده.

۞ **قال المؤلف: «وخلقهم لها»**.

أي: لأجل ذلك خلقهم الله، هٰذه هي الحكمة من خلقهم أن الله تعالى خلقهم ليكونوا موحدين له

وحده لا شريك له، حنفاء لله عَزَّوَجَلَّ، مائلين عن جميع الأباطيل، ثم بيَّن الدليل بقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات]. هٰذا فيه بيان الحكمة من خلق الإنس والجن.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاةَ لا تُسَمَّى صَلاةً إِلا مَعَ الطَّهَارَةِ؛ فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ**».

بعد أن بيَّن الواجب على العباد من لزوم الحنيفية نبه إلى المفسدات التي تفسد العبادة، والتي تصير بها العبادة في واقع الأمر ليست عبادة وإن ظهرت صورتها، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته**»؛ فعليك أن تتعلم هٰذه العبادة التي أمرك الله عَزَّوَجَلَّ بها، أما أن توقع العبادة كيف ما اتفق؛ فإن ذلك لا يقبل منك، وسواءٌ كان إيقاعك للعبادة في العبادة الكبرى التي لأجلها خلقك الله وهي التوحيد، أو كان حتى في أفراد العبادات، جاء عن عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه رأى رجل يصلي، فلما سلم استدعاه وقال له: منذ كم تصلي هٰذه الصلاة؟ قال: منذ أربعين، قال: «ما صليت منذ أربعين سنة»، أنت تظن أنك تصلي منذ أربعين سنة، وواقع الحال أنك لا تصلي، مع أنك تتوضأ تذهب للمسجد وتكبر وتصلي لكن واقع الأمر أنك لا تصلي، لم؟ لأنه -للأسف كحال كثير من الناس اليوم- لا يطمئن في الصلاة، عدم الطمأنينة في الصلاة تجعل المصلي في حكم غير المصلي، والدليل أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما دخل الرجل الذي صلى صلاةً لم يطمئن فيها وجاء وسلم على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن صلى ركعتين قال له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**» مع أنه صلى، فذهب وصلى ركعتين مرة أخرى، فسلم على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن رد عليه السلام: «**ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**» ثم الثالثة، فقال: والذي بعثك بالحق لا أحسن غير هٰذا فعلمني، فبيّن عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كيفية الصلاة وأمره في أكثر من موضع فيها بالطمأنينة، ثم ارفع حتى تعتدل، الذي لا يطمئن لا يعتدل بعد يرفع ينزل مباشرة، ثم اجلس حتى تطمئن جالسًا، فالذي لا يطمئن تجد أنه مباشرة ساعة يجلس بين السجدتين مباشرة يهوي مرة أخرى إلى السجدة الثاني.

❁ **قال المؤلف:** «إذا علمت أن الله خلقك لعبادته فاعلم».

ما العبادة التي تسمى عبادة؟!

❁ **قال المؤلف:** «العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد».

أي: أن الإنسان قد يتعبد لكن لا تعد تصرفاته من أقوال أو أفعال داخلة في العبادة لمَ؟! لأنها وقعت على غير التوحيد، وهل المشركون يتعبدون؟ نعم، يتعبدون بأنواع من العبادات، ومنها أنهم كانوا يحجون كل سنة زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقبله في الجاهلية، فكانوا يحجون؛ فكانوا يتعبدون لله؛ ولكن لم تكن تلك عبادة؛ لأن العبادة لا تسمى عبادة إلا إذا كانت من موحد، فإذا وقعت من مشرك؛ فإنها لا تسمى عبادة، وإن كانت صورتها الظاهرة عبادة.

❁ **قال المؤلف:** «كما أن الصلاة».

هنا من باب القياس والتقريب لطالب العلم، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدته، كالحدث إذا دخل في الطهارة، لو أن إنسانًا -والعياذ بالله- دخل المسجد وهو يعلم أنه على غير وضوء، وصلى مع الناس حتى سلم الإمام، هل يسمى مصليًا هٰذا؟ في الحقيقة التي يعلمها الله لا يسمى مصليًا، أما في الأمر الظاهر أمام الناس، الناس يقولون هٰذا صلى معنا، العبرة بما يعلمه الله تعالى.

❁ **قال المؤلف:** «الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع طهارة».

لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ**»؛ فإذا لم يتوضأ الإنسان؛ فإنه لا يسمى مصليًا، ولهذا حتى لو نسي لو أنك نسيت الوضوء فأتيت وصليت حتى فرغت من الصلاة يقال: أجرك على الله وأنت لا إثم عليك لأنك ناسي؛ لكن عليك أن تعيد الصلاة؛ لأنك لم تتطهر والصلاة لا تفتتح إلا إذا كانت مسبوقة بالطهور.

❁ **قال المؤلف: «كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت».**

لأن العبادة قائمة على التوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات] أي: ليوحدون؛ فإذا عبدوا دون توحيد؛ فإن عبادتهم ليست عبادة.

❁ **قال المؤلف: «كالحدث إذا دخل في الطهارة».**

الحدث: هو الوصف القائم بالبدن من وقوع شيء من نواقض الوضوء؛ فإنه إذا كان الإنسان متلبسًا بشيء من هٰذه الأحداث؛ فإنه لا يصح أن يدخل في الصلاة حتى يرتفع حدثه؛ بأن يتوضأ أو أن يتيمم إذا كان فاقدًا للوضوء؛ ولهذا قال: «**كالحدث إذا دخل في الطهارة**» أو إذا كان الإنسان متطهرًا ثم أحدث في أثناء الصلاة؛ فسدت صلاته؛ فكذلك الحال للشرك -والعياذ بالله- إذا لابس العبادة فإن العبادة لا تسمى عبادة، وإن كان صورتها الظاهرة عبادة؛ لكنها تفسد كما أن الصلاة تفسد إذا دخلها الحدث.

❁ **قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةِ أَفْسَدَهَا وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ، مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ، عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ».**

هٰذا بيان منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بخطورة الشرك، إذا كان الشرك إذا خالط العبادة أفسدها حتى لو كان الإنسان قد مضى على عبادته خمسون أو ستون أو مائة سنة يفسدها، وصار صاحبه من الخالدين في النار؛ عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك، أهم ما على الإنسان المسلم أن يعرف التوحيد، وأن يعرف ما الذي يفسد التوحيد؛ ولهذا أشرف العلوم وأعظمها علم العقيدة؛ لأن علم العقيدة هو المصحح لكل العلوم بعده، كل العلوم كل الأعمال لا تصح إلا إذا صدرت عن عقيدةٍ سوية؛ ولهذا كان من المهم أن يعرف المسلم التوحيد وأن يعرف ضده، ومن توفيق الله عَزَّوَجَلَّ للدعاة إلى الله عَزَّوَجَلَّ كما تقدم، ومن دلائل كونهم على منهجٍ سوي أن يكون أهم ما يحرصون عليه التوحيد، وأهم ما يحذرون منه الشرك؛ فإذا لم يكونوا موفقين صار اهتمامهم بغير التوحيد ابتداءً، وصار تحذيرهم من غير الشرك ابتداءً، ولا يعني ذلك أن الإنسان لا يتكلم إلا في التوحيد؛ يتكلم في التوحيد وفي غير التوحيد، لكن التوحيد مقدم، ولا يعني ذلك أن الإنسان لا يحذر من الزنا والفواحش والتبرج واختلاط النساء، لا، لكن هٰذه الأمور يُحذر منها ويحذر أشد وأشد من الشرك بأنواعه القولية والفعلية أو القلبية؛ فينبغي أن يلاحظ هٰذا، وأن أهم ما على الإنسان أن يعرف التوحيد الذي لأجله خلقه الله وأن يعرف الشرك حتى يحذره ويبتعد عنه حتى لا يقع فيه كما قال الشاعر

تقدم:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

وليس المقصود من معرفتك بالشر أن تفصّل في أقوال المشركين وتقتني كتبهم وتتابع قنواتهم معاذ الله؛ ولكن المقصود أن تعرف ما الذي يمكن أن يتسرب إليك فيفسد عليك عقيدتك وتوحيدك، أما الدخول في متاهات أقوال أهل الشرك وحججهم وضلالاتهم؛ فمعاذ الله أن يكون هٰذا منهجًا مسلوكًا لا يصح هٰذا، وينهى المسلمون عنه ويدخل في هٰذا مَنْ أعطاه الله تعالى بسطة في العلم ليرد عليهم ويقمعهم، أما أن يكون هٰذا أمرًا متاحًا للناس فلا، لا شك أن لا يصلح.

۞ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ الْعِبَادَةِ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ الْعَمَلَ، وَصَارَ صَاحِبُهُ، مِنَ الْخَالِدِينَ فِي النَّارِ. عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ، وَهِيَ الشِّرْكُ باللهِ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ١١٦]. وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ».

ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآية وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] بيانًا للدليل على كون هٰذا الذنب لا يغفر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ الآية هٰذه فيها أكثر من مبحث:

❋ المبحث الأول:

يتعلق بالشرك المذكور في الآية ما هو؟ هل هو الأكبر أو الأصغر؟ إذا قيل أن الآية ذكر فيها الأكبر والأصغر فمعنى ذلك أن الشرك الأصغر لا يُغفر، وصاحبه لا بُدَّ أن يدخل النار هٰذا المعنى، وهٰذا اختيار بعض أهل العلم، قالوا: إن من وقع منه الشرك الأصغر ولم يتب منه؛ فمع أنه مسلم إلا أنه لا بُدَّ له من أن يعذب على ما وقع منه من الشرك، لا بُدَّ أن يعذب؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره، قال: والدليل على دخول الشرك الأصغر: أن الله تعالى ذكر الشرك هنا بصيغة النكرة قوله: «**أن يشرك**»، أن هنا مع الفعل مصدر مؤول، معنى الآية: أن الله لا يغفر شركًا به؛ فيعم الأصغر والأكبر، وعلى هٰذا فمن لقي الله تعالى وقد حلف بغير الله ولم يتب أو رائى ولم يتب؛ فإن الله لا يغفر له وإن كان مسلمًا ولا بُدَّ أن يعذب عليه، هٰذا على القول الأول.

❍ **القول الثاني:** أن المراد هنا الشرك الأكبر، وليس المراد الشرك الأصغر والله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة]، وهٰذه الآية في الشرك الأكبر؛ لأن أهل الشرك الأكبر هم الذين يخلدون، أما من وقع منه شركٌ أصغر حتى لو دخل النار؛ فإنه من المسلمين كأن يحلف بغير الله مثلًا ويلقى الله على هٰذا؛ فإنه حتى لو دخل النار يكون شأنه شأن المخالفين العصاة من أهل الملة؛ لأنه مسلم لم يرتد بشركه الأصغر.

ومعلوم أن الموحدين الذين يقع منهم شيء من المخالفات التي يستوجبون بها دخول النار يبقون بها ما شاء الله عَزَّوَجَلَّ أن يبقوا ثم يخرجون منها بعد أن يمحصوا بالعذاب الذي يشاءه الله تعالى لهم.

وبه يعرف خطورة الشرك، سواءً أكان أصغر أو أكبر؛ لأنه على القول فإن الشرك الأصغر لا يغفر، وعلى هٰذا يدخل -والعياذ بالله- مثل الرياء ومثل الحلف بغير الله، ويدخل التسوية في المشيئة ما لو قال: لولا الله وأنت ونحو ذلك، وهٰذا كله يؤكد على ضبط الألفاظ، وضبط التصرفات، وضبط مسائل القلوب المتعلقة بالشرك، وأنها على القول الأول لا تغفر، وكل هٰذا أيضًا يؤكد على أهمية تعلم التوحيد حتى يعرفَ الإنسان الشرك بأنواعه فيحذره، ويعلم أن هٰذه المقولة من المقولات الشركية، ويعلم أن هٰذا التصرف من التصرفات الشركية فيحذره ويبعد عنه.

❁ المبحث الثاني: أن الله تعالى قسم الذنوب قسمين اثنين:

❍ **القسم الأول:** فهو الذي لا يمكن أن يغفر وهو الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

❍ **القسم الثاني:** فهو ما سواه من الذنوب، وقد عمت الآية كل ذنبٍ سوى الشرك لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا﴾، حرف (ما) يفيد العموم؛ وبذلك يدخل ما سوى الشرك من قتل النفس، أو الزنا، أو شرب الخمر، أو أي ذنبٍ من الذنوب غير الشرك؛ فإن الله تعالى يغفره إذا شاء، إن شاء تعالى تلقى هٰذا العبد بالمغفرة، وإن شاء عذبه، الأمر إليه وحده لا شريك له، ودل على هٰذا حديث عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لما بايع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الأنصار البيعة التي بايعهم عليها: «**أن لا يشركوا بالله تعالى، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجهلم فمن فعل شيئًا من ذلك فعوقب به كان كفارة له، ومن فعل ذلك فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له**»، مع أنه ذكر كبائر.

وبهذه الآية يبطل قول المعتزلة وقول الخوراج إلى قيام الساعة.

وهٰذا الآية أيها الإخوة!! أشد على المعتزلة والخوارج من الصعواعق المرسلة كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأن هٰذه الآية أعظم آية تنسف مقولة المعتزلة الذين يقولون: إن صاحب الكبيرة يخلد في النار، قد نصت الآية على أن الله يغفر ما سوى الشرك إذا شاء؛ وهكذا الخوارج الذين يكفرون بالذنوب ويقولون: إن صاحب الكبيرة يكون خالدًا في النار؛ فإن الله نص على أن ما سوى الشرك تحت مشيئته؛ ولهذا لما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لأبي ذر رضي الله عنه: «**بَشَّرَنِي جِبْرِيلُ، أَنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ**» فعجب أبو ذر رضي الله عنه قال: وإن زنى وإن سرق؟ قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ**»، قال الثالثة: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ**»؛ لأن غفران الله ورحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يحدها شيء؛ فإذا أراد الله أن يغفر لأحد فأمره إليه.

لكن لا شك ولا ريب أن النصوص دلت على وقوع أهل الجرائم هٰذه في عذاب في جنهم نسأل الله العافية والسلامة -كما دل على هٰذا نصوص من القرآن في تعذيب صاحب الربا وفي تعذيب صاحب الزنا، ودلت نصوص أخرى أيضًا على أنهم يعذبون في قبورهم ثبتت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فلا يغتر بـهٰذا أحدا، ونقول الأمر خاضع لمشيئته تعالى، ومعنى قوله تحت مشيئته، معناه أنه قد يعفو عن أناس، وسيعاقب أناسًا كما دلت النصوص، ولهذا يأذن الله بالشفاعة في آخر الأمر بعد أن يعذب هؤلاء ما شاء الله تعالى أن يعذبوا.

❁ المبحث الثالث:

قول المؤلف: «وذلك بمعرفة أربع قواعد، الذي يخلص من هٰذه الشبكة».

شبكة الشرك، معرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى في كتابه، خص القواعد هنا الأربع بكونها سبب تخليص العبد من الشرك؛ وليس مراده أن الاعتقاد ليس فيه إلا هٰذه القواعد، فقواعد الاعتقاد أكثر من هٰذه قطعًا، ولكل بابٍ من أبواب الاعتقاد قواعد تضبطه، كقواعد الأسماء والصفات وغيرها من القواعد.

وقواعد الاعتقاد عمومًا مهمة لطالب العلم؛ لأنه يجمع بها علم الاعتقاد ويضبطه، القواعد مفيدة لطالب العلم كما أنك الآن مثلًا في اللغة العربية إذا عرفت قاعدة الفعل المرفوع، وقاعدة الفاعل، وقاعدة

المفعول به، ضبطت كلامك واستطعت أن تعرف المرفوع من المنصوب من المجرور استطعت أن تضبط؛ لأنك ضبطت القاعدة، هٰذه القواعد المرتبطة بالعقيدة مفيدة جدًا لطالب العلم، تضبط له علمه، ويربطها قطعًا بالأدلة فيكون علمه مؤصلا.

هٰذه القواعد التي إذا عرفها الإنسان وضبطها ومضى على ما ذكر له في النصوص منها؛ فإنه بإذن الله يتخلص من شبكة الشرك.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الْقَاعِدَةُ الأُولَى: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ –تَعَالَى– هُوَ الْخَالِقُ، الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلامِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ **[يونس: ٣١]**».

بدأ في القاعدة الأولى بذكر حقيقة معلومة من القرآن العظيم؛ لكن ضل عنها كثير من الناس؛ فلما ضلوا عنها خفي عليهم التوحيد، ومن خفي عليه التوحيد خفي عليه الشرك قطعًا، عندنا مسألة مهمة جدًا في العقيدة: «**من لم يعرف الإيمان لم يعرف الكفر، ومن لم يعرف التوحيد لم يعرف الشرك**»؛ لأن معرفة الكفر مفرعة عن معرفة الإيمان، ومعرفة الشرك مفرعة عن معرفة التوحيد؛ فمن أخطأ في فهم التوحيد سيخطيء في فهم الشرك قطعًا؛ وهكذا من أخطأ في فهم الإيمان وحقيقته شرعًا سيخطيء في فهم حقيقة الكفر.

الكفار الذين أرسل إليهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وقاتلهم واستحل منهم ما يستحل من أهل الكفر فصار لهم أحكام في الدنيا هي القتل لمقاتلتهم، والسبي لذراريهم ونسائهم، وأخذ أموالهم وحكمهم في الآخرة أنهم خالدون في النار خلودًا أبديًا لا ينقطع، هؤلاء الكفار الذين أرسل إليهم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بنص القرآن مقرون أن الله تعالى هو ربهم وهو خالقهم وهو المدبر وهو الذي يرزق وهو الذي يملك وإليه الأمر كله؛ فما الذي جعلهم يكونون كفارًا؟! مع أنهم يقرون أن الله تعالى هو ربهم، الذي جعلهم في حكم الكفار أنهم مع إقرارهم بهذا مشركون في العبادة؛ لأن التوحيد أنواع ثلاثة:

❋ النوع الأول: توحيد الربوبية:

وهو الإقرار بأن الله تعالى هو الخالق والمدبر والرازق المحيي المميت بأن يفرد الله تعالى في أفعاله، فهذا كان عندهم؛ لكنهم كانوا يجعلون مع الله عَزَّوَجَلَّ شريكًا في العبادة وبه سمّوا مشركين، لماذا سمّوا مشركين؟ كلمة الشرك من الفعل الثلاثي شرك، شركهم في ماذا؟ شركهم في جعل شيء لله من أنواع العبادة، وجعل شيء لغيره تعالى، وبه سمّوا مشركين، أما لو كانوا منكرين لله تعالى بالكلية جاحدين لكانت حقيقتهم أنهم معطلون لإثبات وجود الرب وهٰذا يرده القرآن، النصوص دالة دلالة قطعية على أنهم مقرون بالله عَزَّوَجَلَّ، وإنما أشركوا لأجل أنهم صرفوا العبادة لغير الله كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ [الأنعام: ١٣٦] هٰذه حقيقة شركهم أنهم يجعلون العبادة لله ويجعلونها لغيره فبها سمّوا مشركين.

❍ **التوحيد، ما هو؟** هو إفراد الله بأن يفرد سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بالعبادة فهذا أبوه وامتنعوا منه غاية الامتناع، ولما قال لهم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قولوا لا إلٰه إلا الله امتنعوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥﴾ [ص] فهم لا يريدون أن يفردون الله بالعبادة، لم؟ لأنهم يزعمون أن هٰذه الأشياء التي يعبدونها - كما سيأتي- تقربهم إلى الله تعالى وتشفع لهم -كما سيأتي إن شاء الله تعالى بيانه-.

نبيّن أولًا الآية وهي قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ [يونس] أي: ألا تتقون الله تعالى أن تقروا لله عَزَّوَجَلَّ بهذه الأمور ثم تصرفوا العبادة لغيره كما بيَّن المفسرون؟ ما الذي أقروا به في هٰذه الآية؟ أقروا بأن الله هو الرازق، وأن إليه الملك وحده تعالى، هو الذي يملك السمع والأبصار، وهو الذي إليه إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، وهو الذي إليه تدبير الأمر كله، ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ فدل على أنهم مقرون أن أمر الربوبية إلى الله وحده، ومع ذلك صاروا مشركين.

❍ **الأمر الآخر:** الآية الأخرى التي تدل على هٰذا، عدة آيات استفتحت في كتاب الله بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾، ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ

ﱡﭐ الْعَلِيمُ ﱠ [الزخرف: ٩]، ﱡﭐ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﱠ [العنكبوت: ٦١]، ﱡﭐ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﱠ [العنكبوت: ٦٣] دل على أنهم يقرون على أن أمور التدبير والتصريف إلى الله، وهٰذه هي الربوبية التي كانوا يقرون بها، ودل على أن عندهم إيمانًا بالربوبية وشركًا في العبادة الآية العظيمة الجامعة في سورة يوسف وهي قوله تعالى: ﱡﭐ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦ ﱠ [يوسف] فدل على أن عندهم إيمانًا بالله تعالى متعلقًا بربوبيته؛ لكنهم يخلطون به شركًا في العبادة، وقد روى ابن جرير في هٰذا الموضع -أجزل الله له المثوبة- عن سبعة أو ثمانية من السلف معنى الآية، الآية فيها إيمانٌ، ذكر الإيمان وذكر الشرك، والمعتاد أن الإيمان والشرك لا يجتمعان، يقال: يجتمعان بأكثر من اعتبار مثل أن يكون الشرك في المسلم شركًا أصغر؛ فعنده إيمان وعنده شرك أصغر، والسلف رضي الله عنهم يستدلون بالآيات التي وردت في الشرك الأكبر يستدلون بها في أحوال الشرك الأصغر، هٰذا أمر.

❍ **الحال الثاني:** وهو المراد في الآية والذي فيه نزلت وبيّنه ابن عباس وقتادة ومجاهد وابن زيد وعدد من رواه عنهم ابن جرير في هٰذا الموضع يقول ابن عباس: لئن سألتهم من خلق السَّمٰوات، من خلق الأرض، من خلقهم ليقولن الله، وهم يشركون به في عبادته، وقال قتادة: لست تلقى أحدًا إلا أخبرك أن الله تعالى هو خالقه ثم يشرك في عبادته أو كما قال، وابن عباس رضي الله عنه أيضًا في رواية أخرى أخبر أن الآية نزلت في النصارى بإقرارهم أن الله الذي يخلق السَّمٰوات والأرض ثم يسجدون للأنداد، فجعل الشرك المراد هنا في الآية المراد الشرك المتعلق بالعبادة، أما الإيمان الوارد عندهم؛ فالمراد به إيمانهم بالربوبية؛ فإيمانهم بالربوبية لا يكفي ليدخلهم في الإسلام لأنهم مفطورون فطرة على أن الله تبارك وتعالى هو الذي خلقهم، ﱡﭐفِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﱠ [الروم: ٣٠] والرسل عليهم الصلاة والسلام أتت لتذكرهم بالفطرة التي فطروا عليها ليجعلوا العبادة للذي فطرهم سبحانه وبحمده.

❍ **إذًا يجب أن تُعرف هٰذه القاعدة:** «وهي أن الكفار مقرون لله بربوبيته ومشركون برب العالمين في العبادة، ومن وقع منه شيء في هٰذا لم ينفعه إيمانه بالربوبية»؛ لأن التوحيد يجب، التوحيد متلازم الربوبية والألوهية والأسماء والصفات لا يصح بتاتًا أن يركز على شيء منها ويشرك في شيءٍ آخر، فهي متلازمة متضمن بعضها بعضًا؛ فعلى من أقر لله تعالى بربوبيته أن يفرده بالعبادة، أما أن يقر لله بالربوبية ثم يعبد

غيره؛ فإن هٰذا هو الذي عجّب الله منه عباده في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١﴾ [العنكبوت] أي: يسألون هٰذه الأسئلة ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وأمثالها من الآيات تتبع باستفهامٍ استنكاري، ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١﴾ [العنكبوت]، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة]، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [يونس] أي: كيف تقرون لله عَزَّوَجَلَّ بالربوبية ثم تصرفون العبادة لغيره، ما سبب صرفهم العبادة لغيره؟! يأتي إن شاء الله تعالى.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلا لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ، فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]. وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]. وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ. فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلا اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].**

وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكَرَّمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]».

في هٰذه القاعدة الثانية: بيان سبب كونهم يقرون لله بالربوبية ويصرفون العبادة لغيره، فقال: «أنهم يقولون» -أي: في تبرير شركهم- «ما دعوناهم» أي: هٰذه المعبودات من دون الله سواء أكانت من الملائكة أو الأنبياء أو الصالحين أو الأشجار أو الأحجار، يقولون: ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لأجل أمرين اثنين:

- **الأمر الأول:** طلب القربة، أي: أن يقربونا إلى الله.
- **الأمر الثاني:** أن يشفعوا لنا.

ودل على أن هٰذه هي مقاصدهم قول الله تعالى في **الأمر الأول:** ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] معنى الآية كما قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والذين اتخذوا من دونه أولياء يقولون -هٰذا المراد- يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى؛ فدل على أنهم يعبدون غير الله، وأن هٰذا هو سبب شركهم، فقد اتخذوا من دون الله تعالى أولياء، لم عبدوهم؟ عبدوهم لما ذكر في الآية يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ﴾ يقولون إن لهم مكانة سواء قالوا إنهم ملائكة أو صالحين أو من الأنبياء أو مهما ذكروا من المبررات، يقولون: إن لهم عند الله جاهًا ومنزلة ومكانة؛ إذا نحن دعوناهم فلأجل مكانتهم يقربوننا إلى الله؛ ولأنهم مشركون قاسوا الله تعالى على الملوك -تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرا-، قالوا: كما أن للملك حاشية ومقربين إذا أنت صرت على صلة بهم قربوك إلى الملك قالوا: فهؤلاء الصالحون والملائكة والأنبياء لهم مكانة عند الله؛ إذا نحن دعوناهم وعبدناهم قربونا إلى الله؛ لأن المشرك يقيس الرب -عياذًا بالله- يقيسه على الخلق؛ فهذا هو السبب الأول؛ ولهذا ذكر أهل التفسير وغيرهم أنهم كانوا يضعون الأصنام بزعمهم على صور من يعظمون؛ فإذا عظموا ملائكة جعلوا بزعمهم صورة لهذا الملك، هي هٰذا الصنم قالوا فإذا دعونا هٰذا الصنم قربنا الملك الذي جعلنا هٰذا الصنم على هيئته، قربنا إلى الله؛ فلهذا كانوا يتقربون إلى هٰذه الأصنام مع علمهم القاطع الجازم أن هٰذه الأصنام ليست التي تخلق وترزق كما تقدم في القاعدة السابقة؛ لأنهم هم الذين ينحتونها ويصلحونها، فهم يعلمون أنها أصنام ليست التي خلقت السَّمٰوات والأرض بل الذي خلق السَّمٰوات والأرض مبيّن كما في النصوص أنهم يعتقدون أنه الله، إذًا لماذا عبدوا غير الله تعالى؟ لطلب أن يقربهم هٰذا الذي جعلت هٰذه الأصنام على هيئته أو هٰذا الذي تُعبّد بالطواف بقبره أو بالسجود له أو بدعوته من دون الله أيًا كان، يقول إذا تقربت إليه قربك من الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ۝٣﴾ كذبوا وهم بذلك كفار، وافتروا على الله عَزَّوَجَلَّ ليس هٰذا من دين الله تعالى، ولا يرض الله تعالى ما صنعوا.

❍ **المقصد الثاني:** مقصد الشفاعة أنهم كانوا يريدون الشفاعة، قد قال بعض المفسرين: إنهم أصلًا لا يقرون بالآخرة فكيف يطلبون الشفاعة؟ يقال: المشركون على نوعين:

❍ **النوع الأول:** منهم من لا يقرون بالآخرة كمشركي العرب؛ فماذا يريدون بالشفاعة؟! يريدون بالشفاعة في أمور دنياهم؛ لأنهم لا يقرون بالآخرة فيريدون أن تشفع لهم في رزقهم وفي إنزال المطر عليهم وفي إدرار النعم، ونحو ذلك.

❍ **النوع الثاني**: من المشركين من يقرون بالآخرة فيقولون: إن هٰذه المعبودات أيا كانت المعبودات تشفع لنا عند الله في القيامة، ومن هنا قال تعالى عنهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ هٰذا حال كل معبود من دون الله أنه لا يضر ولا ينفع كما قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم]، واتخذوا من دون الله آلهة هٰذا هو حالهم، الآلهة المعبودة من دون الله تعالى ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل] وحالهم كما ذكر الله في مواضع كثيرة في القرآن لا ينفعون ولا يضرون نهائيًا بتاتًا ولا لهم أي علاقة بالنفع والضر.

❍ **إذًا لماذا يصرفون العبادة لهم؟!**

لأجل أن تشفع لهم عند الله أو تقربهم؛ فمن هنا:

۞ **قال المؤلف: «والشفاعة شفاعتان».**

الشفاعة في كتاب الله تعالى نوعان:

❍ **النوع الأول**: نوعٌ منفي.

❍ **النوع الثاني**: نوعٌ مثبت.

وكل أحد يعلم أن الرب تعالى إذا نفى شيئًا وأثبت شيئًا، يعلم أن المنفي غير المثبت قطعًا، إذا نفي أمر وأثبت أمر؛ فالمنفي غير المثبت يقينًا؛ لأنه حين نفيت الشفاعة في موضع كان المراد بها نوعًا من الشفاعة، وحين أثبتت الشفاعة بشروطٍ في مواضع أخرى كان المراد نوعٌ آخر من الشفاعة، وإلا معاذ الله أن تنفى أو تثبت نفس الشفاعة؛ فلا يدرى هل هي منفية أو مثبتة لا يقال، المنفي من الشفاعة غير المثبت.

۞ ما المنفي من الشفاعة؟!

❍ **الشفاعة المنفية**: هي التي كانوا يتوهمونها توهمًا بأن يطلبوها من غير الله عَزَّوَجَلَّ، يقال أول قاعدة تقال في الشفاعة وهي قاعدة كبيرة، الشفاعة لمن؟! الشفاعة لله عَزَّوَجَلَّ، فهي ملكه وحده قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] كما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤] فكما أن

الأمر لله، فالشفاعة لله عَزَّوَجَلَّ؛ فالشفاعة ملكه، ثم هو يأذن بها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لمن شاء كما سيأتي بشروطها، أما أصل الشفاعة فهي ملك لله تعالى، وليس لأحدٍ أن يطلب الشفاعة إلا إذا كانت على الشرط الشرعي؛ فإذا أوقعها على غير الشرط الشرعي لم تنفعه الشفاعة؛ ولهذا جاءت الآيات في شأن الشفاعة على نوعين:

❍ **النوع الأول:** آيات تنفي الشفاعة، وهي التي كان المشركون يطلبونها من معبوداتهم، ويتوهمون أن لمعبوداتهم هٰذه الشفاعة كما قال تعالى في الآيات النافية للشفاعة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [البقرة] فنفى الله هنا الشفاعة، أي: أن الشفاعة التي يتوهمها المشركون هنا منفية، وهكذا قوله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المدثر]؛ فالكفرة لا تنفعهم الشفاعة بتاتًا؛ لأن الشفاعة لا تدرك أهل الشرك، وأهل الشرك كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ [المائدة: ٧٢] لا تنفعه الشفاعة بتاتًا، إذًا هٰذا النوع الأول من الشفاعة وهو الذي كان يتوهمه المشركون، وفيه يقول الله تعالى حين يردون القيامة: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ ﴾ [الأنعام: ٩٤]؛ فدل على أن هؤلاء كانوا يتوهمون أنها ستشفع لهم هٰذه المعبودات تتبرأ منهم أشد ما كانوا احتياجًا إليهم ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة].

❍ **النوع الثاني:** من الشفاعة في كتاب الله هو المثبت وهو الذي يطلب من الله ابتداءًا، الشافع الذي يأذن الله تعالى له بالشفاعة مكرم، يكرمه الله بالشفاعة ويرفع درجته؛ ولهذا لا يشفع أي أحد، الشفاعة التي يأذن الله تعالى بها لا يمكن أن يشفع أي أحد، بل يشفع من سنذكرهم إن شاء الله تعالى الآن، والمشفوع له الذي يأذن الله تعالى بالشفاعة له لا بُدَّ أن يكون موحدًا؛ فإذا لم يكن من أهل التوحيد؛ فإنه لا يمكن أن تدركه الشفاعة، قلنا: إن الشفاعة القاعدة الكبيرة فيها أن الشفاعة لله فهي ملكه تعالى ثم إنه يأذن بها، ولهذا قال تعالى بيانًا لشرط الإذن: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ما يمكن أن يشفع عند الله تعالى إلا بإذنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وقال الله عَزَّوَجَلَّ بيانًا لكون الأمر له وحده سبحانه وأنه إنما تقع الشفاعة بإذنه: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النجم]

هٰذا شرط الإذن.

❍ **الشرط الأول**: أن يأذن الله والله تعالى جعل للإذن بالشفاعة وقتًا محددًا، وهو بعد مضي خمسين ألف سنة من الموقف في القيامة، ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ [المعارج] إذا مضى وقت هائل من هٰذا اليوم العظيم أذن الله تعالى بالشفاعة؛ فيأتي الناس إلى آدم فيقولون: أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته اشفع لنا إلى ربك، أي: يأتي الأبناء إلى أبيهم ألا ترى ما بنا أي: يلحقهم من الموقف هو عظيم جدا وشدة وكرب؛ فيمتنع آدم من الشفاعة ويحيلهم إلى نوح، ثم يمتنع نوح ويحيلهم إلى إبراهيم، ثم يمتنع إبراهيم ويحيلهم إلى موسى، ثم يمتنع موسى ويحيلهم إلى عيسى، ثم يمتنع عيسى ويحيلهم إلى محمد صلى الله عليه وعليهم جميعًا وسلم تسليمًا كثيرًا فيقول: أنا لها.

❍ **ماذا يفعل أعلم الناس بربه؟!** يشفع؟ لا والله ما يشفع، يأتي تحت العرش فيخر ساجدًا جمعة أي: أسبوعًا يستأذن؛ لأنه أعلم الناس بالله عَزَّوَجَلَّ لا يشفع ابتداء، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] لا يمكن أن يُشفع عند الله إلا بإذنه، جاء في الروايات أنه يمكث هكذا جمعة أي: يمكث أسبوعًا كاملًا ساجدًا، قال: «**ويفتح الله علي بمحامد**» يفتح الله عليه بمحامد في الآخرة لم يكن يعرفها في الدنيا، ثم بعد ذلك يقال له: «**ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَى وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**»، الآن جاء الإذن وحقق الشرط الأول، ماذا يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أمتي يا رب أمتي يا رب**»، فيشفع في أمته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الشفاعة من تدرك؟! سأل أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «**لقد ظننت أن لا يسألني عن هٰذا الحديث أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إلٰه إلا الله خالصًا من قلبه**»؛ فدل على أن الشفاعة لها شرط آخر، وهو أن يكون المشفوع له ممن يرضى الله عنه، وجمعتهما، وذكر الله تعالى شرط الرضى وحده وشرط الإذن وحده في قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وذكر شرط الرضا وحده في قوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وجمع الشرطين في سورة النجم بقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النجم] فهذان شرطا الشفاعة؛ فإذا تحقق الشرطان أذن الله تعالى بالشفاعة.

❁ومن الذين يشفعون؟!

❁ **قال المؤلف:** «والشافع مكرم بالشفاعة».

الله تعالى يكرمه، ولهذا المقام المحمود الذي قال الله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء] هو شفاعة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في أهل الموقف فيحمده أهل الموقف كلهم جنهم وإنسهم؛ لأن الله تعالى قبل شفاعته فأذن سبحانه بفصل القضاء، إكرام لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهو أفضل من وطأت قدماه الثرى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهو أفضل بني آدم على الإطلاق صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وعلى آله وصحبه، فيكرمه الله تعالى بالشفاعة.

❍ **المشفوع له كما قال هنا:** من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن، أي: الشرطين؛ الرضا من رضي الله قوله وعمله بعد أن يأذن سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بالشفاعة كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فذكر شرطا الإذن هنا.

إذًا الشفاعة تُطلب من الله تعالى، والشافع مكرم بالشفاعة، وقد ثبتت الأحاديث بأن الملائكة تشفع لعظم قدر الملائكة عند الله، والأنبياء يشفعون، والصالحون يشفعون، والأفراد يشفعون لآبائهم الصغار، وقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ودع الحديث منك على بال، نسال الله أن يجعلنا وإياك ممن يأذن لهم بالشفاعة يقول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللَّعَّانِينَ لا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ، وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»؛ فاحذر اللعن والإكثار منه؛ فإنه يمنعك من أن تكون من الشفعاء، «**إِنَّ اللَّعَّانِينَ لا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ، وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، المقصود باللعانين هنا من يكونون من المسلمين، أما الكفار فإنهم أصلًا لا تنالهم الشفاعة فضلًا عن أن يشفعوا لأحد؛ فلهذا بعض الذنوب -عياذًا بالله- تحجب العبد عن الشفاعة، وممن يشفع الشهداء؛ فإن الشهيد يشفع في عدد كبير من قرابته.

الحاصل أن الشفاعة المثبتة هي التي دل عليها القرآن بشرطيها، والشفاعة المنفية هي التي يتوهمها المشركون، والمشركون أبعد الناس عما طلبوا، هم يريدون القربة، وهم أبعد الناس عن الله تعالى؛ لأن الشرك يبعدهم عن الله، ويريدون الشفاعة بالشرك فلا يمكن أن تنالهم الشفاعة، فدل على أنهم صار لهم ضد ما كانوا يريدون، -نسأل الله العافية-، ولهذا خسرانهم مبين، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝١١﴾

[الحج] الخسران في الآخرة هائل، كما أن الفوز كما قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾ [البروج] الفوز كبير في الآخرة والخسران مبين وشديد -نسأل الله الرحمة والمغفرة-، ولهذا عوقبوا بأن انقطعت بهم الأسباب، قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ٦﴾ [الأحقاف] فتنقطع -نسأل الله العافية- عنهم أسباب أي: أسباب الفرج تنقطع بالكلية؛ ولهذا يبلسون ينقطعون عن أي خير -نسأل الله العافية-، ويكون حالهم -نسأل الله العافية- حال الذين انقطعت حيلته وذهبت ظنونه وتوهماته وتخرصاته وعاد -نسأل الله العافية- على أسوأ ما يكون الحال، هٰذا من دلائل نواقض التوحيد، حتى لا يعيش الإنسان سنين طوال يتخبط في المهانة وفي الظلمات يظن أنه على خير وهو على خسران مبين -نسأل الله العافية والسلامة-.

۞ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **الْقَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ النَّبِيَّ** -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- **ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَشْجَارَ وَالأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ** -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ- **وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ﴾ **[الأنفال: ٣٩].**
وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ **[فصلت: ٣٧]. وَدَلِيلُ الْمَلائِكَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى:**﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًا ﴾ **الآية [آل عمران: ٨٠]. وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ **الآية [المائدة: ١١٦].**

وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ **الآية [الإسراء: ٥٧]. وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴾ **[النجم: ١٩، ٢٠].**

وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ **إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ**

حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ، يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيُنَوِّطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالَ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. الحَدِيثَ».

❁ القاعدة الثالثة:

في بيان أحوال المشركين الذين لما بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت بهم الأرض، الناس زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين بعث كانوا على صنفين اثنين:

❍ **الصنف الأول**: أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى الذين بقوا على الكتاب السابق، ولم يبدلوا، أما من بدل؛ فإنه يكون قد كفر بكتابه وبنبيه.

❍ **الصنف الثاني**: المشركون بأنواعهم، وهم المذكورون هنا، ظهر على أناس متفرقين في عباداتهم.

❍ **الصنف الأول**: وهم أهل الكتاب الذين ثبتوا على كتابهم حقًا، وأطاعوا رسلهم صلى الله عليهم وسلم حقًا، آمنوا بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مباشرة؛ لأن في كتبهم الميثاق والعهد المأخوذ عليهم إن بعث الله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يؤمنوا به، فالمستمسكون بكتابهم سواء كانوا يهودًا أو نصارى انضموا إلى هٰذا النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مباشرة كعبد الله بن سلام رضي الله عنه وهو أعلم اليهود في زمنه، وكالنجاشي رَحِمَهُ اللَّهُ وهو من النصارى المشاهير في زمنه وكان حاكمًا للحبشة؛ فمن كانوا مستمسكين بكتابهم انضموا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآمنوا به، ومن أبوا الدخول في دين الله عَزَّ وَجَلَّ مع أخذ العهد عليهم في كتبهم ومن كلام أنبيائهم فقد كفروا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكفروا بأنبيائهم أيضًا؛ لأن العهد الذي أخذ عليهم قد نقضوه؛ فهذا ما يتعلق بالقسم الأول منهم وهم أهل الكتاب.

❍ **الصنف الثاني**: وهم المشركون، والمشركون أنواع شتى، وليست العبرة بمن يشركون لا يقال هل هو مشرك بملك أو بنبي ليس العبرة بهذا، العبرة أنهم إذا جعلوا العبادة لغير الله تعالى؛ فإنهم بذلك يكونون كفارًا خارجون من عافية الله عَزَّ وَجَلَّ إلى لعنته ومقته أيًا كان الذي يعبدونه، ولو كان الذي يعبدونه ملكًا أو نبيًا؛ فإنهم يكونون به كفارًا بنص القرآن.

لهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظهر على أناس متفرقين في عباداتهم فمنهم من يعبد الملائكة ويعظمهم ويتقرب إلى الملائكة، ومن ضمن تقربه إلى الملائكة أن جعل أصنامًا يزعم أنها على صورة فلان من الملائكة وهٰذا على صورة فلان من الملائكة كما تقدم، ويتقرب بهذه الأصنام يقول حتى

تقربنا تلك الملائكة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

❍ **الصنف الثاني**: منهم من يعبد الأنبياء.

❍ **الصنف الثالث**: من يعبد الصالحين.

❍ **وصنف آخر**: يعبدون الأشجار، صنف آخر: يعبدون الأحجار، ومنهم من يعبد الكواكب العليا كالشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأفلاك إلى غير ذلك من العبادات، هل فرق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينهم وقال: من يعبدون الملائكة والأنبياء حالهم أيسر لأنهم ليسوا كالذين يعبدون الأشجار والأحجار؟ أبدًا لم يفرق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينهم، من صرف العبادة لغير الله تعالى فهو مشرك بقطع النظر عمن أشرك به، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَـل كُـلُّ مَعبُـودٍ سِـوَاهُ فَبَاطِـلٌ مِـن عَرشِـهِ حَتَّـى الحَضِـيض الـدَّاني

❍ **العرش**: هو أعلى المخلوقات، تحت العرش السَّمٰوات بما فيها من الأجرام العلوية، ثم الأرض بما فيها من الصالحين، وفي السَّمٰوات الملائكة كما هو معلوم، وفي الأرض ما فيها من الأشجار والأحجار والجن والإنس كل هؤلاء صرف العبادة لهم كفر مخرج من الملة أيًا كان المعبود، ولا يقال: من عبد الملائكة حاله أيسر؛ لأنه يكون مشركًا على كل حال، ويكون حلال الدم وخالدًا في النار، من حيث الحكم هو خالد في النار وليس في عافية من الله تعالى، سواءٌ عبد ملكًا أو عبد نبيًا أو عبد صالحًا أو شجرًا.

❋ ما الدليل على أن هذه العبادات موجودة عندهم؟!

أولًا: بيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن النبي لمي يفرق بينهم، وقال تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ ﴾ أي: جميعًا كل أصناف الكفار ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ ما المراد بالفتنة؟ الفتنة كما بين كثير من السلف في الآية هنا: المراد بها الشرك، الأصل قتالهم حتى لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ**» ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أي: حتى لا يكون شرك نهائيًا في الأرض، هٰذا هو المقصد من القتال، قال تعالى: ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ [الفتح: ١٦] إما أن يستمروا على كفرهم فيقاتلوا، أو أن يسلموا.

ودلت النصوص الثابتة عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من فعله ومن فعل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ على أنه يمكن أن يُقر الكفار بالجزية؛ فيكونوا على دينهم فهذا استثناء، فيعرض عليهم الإسلام فإن أسلموا فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، وهم أخوتنا ليس لنا من أموالهم ولا من أهليهم أدنى شيء؛ لأنهم مثلنا تمامًا إذا أسلموا، فإن أبوا الإسلام عرضت عليهم الجزية، فإن أبوا الجزية فإنهم يقاتلون إذا كان للمسلمين قدرة، أما إذا كان المسلمون لو قاتلوهم لجر على الأمة من آثار قتالهم مفاسد كبيرة فلا شك أنه لا يقاتلون؛ لأن جميع أحكام الشرع من صلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد كلها مربوطة بالاستطاعة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ**»؛ فالأمور على الاستطاعة؛ وليست -سواء في الجهاد أو في غيره- كلها مربوطة بالاستطاعة.

❁ ما الدليل على أن المشركين كانوا يعبدون هذه المعبودات المتفرقة؟!

الأدلة ذكرها عندك رَحِمَهُ اللَّهُ، هنا لاحظ قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ودليل الشمس والقمر**» فيه تقدير، مقصود في عبادة الشمس والقمر هٰذا المراد لأنه يقول كانوا يعبدون الأشجار، الدليل على عبادة الشمس والقمر قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت: ٣٧]؛ لأن هناك من كان يسجد للشمس وللقمر، ودل القرآن على أن سبأ كانوا يفعلون ذلك، كما قال الله تعالى عن الهدهد لما ذكر لسليمان: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ [النمل: ٢٣-٢٤] فدل على أن هناك من يسجدون للشمس، وهناك من يسجدون للقمر؛ ولهذا كانت آية الخسوف في الشمس والقمر آية عظيمة من آيات الله تعالى، تدل على أن الله يصرّف هٰذه الأجرام وأنها ليس إليها تصريف نفسها إقامة من الله تعالى للحجة على عابديها، إذًا نهى الله تعالى أن تعبد الشمس والقمر وأمر أن يُسجد للذي خلقهن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

❁ قال المؤلف: «ودليل الملائكة».

أي: ودليل عبادة الملائكة؛ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾ [آل عمران: ٨٠]، المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ قد يعطيك الآية ويريد منك أن تتمها؛ لأن الشاهد فيها وهو حريص

رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن تكون القواعد موجزة يمكن حفظها وفهمها بسهولة، يقول تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ ﴾ أي: النبي ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية، ثم قال في الآية التي بعدها: ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ ﴾ أي: النبي ﴿أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ٨٠﴾ [آل عمران] فدل على أن عبادة الملائكة كفر بنص القرآن، وأن عبادة الأنبياء كفر بنص القرآن لهذا قال: ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ٨٠﴾ وكيف يتخذون أربابًا بأن تصرف لهم العبادة، إذا صرفت لهم العبادة من دون الله بأن دعوا وسجد السجدة لهم، وتقرب أحدٌ بالنذر لهم فكل هٰذا ولا شك أنه ضرب من ضروب الشرك بهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ ﴾.

المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل هٰذا دليلًا للملائكة مع أنه يدل على عبادة الملائكة والأنبياء؛ لأنه سيفرد الأنبياء بدليل فقال: «ودليل الأنبياء» أي: ودليل عبادة الأنبياء أن النصارى لماذا هم كفار؟ لأنهم يعبدون عيسى، وعيسى من أفضل الرسل صلى الله عليهم وسلم؛ فهو من أولي العزم من الرسل الخمسة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، هؤلاء هم أول العزم من الرسل، عبدوا نبيًا كريمًا، له مقام عظيم عند الله فصاروا بعبادتهم للنبي مشركين كفار، إذًا ما حال من يعبد غير النبي؟ من باب أولى أن يكون كافر، قال تعالى -وهٰذه الآية تكون في القيامة حين يبعث الله تعالى الخلائق يقول تعالى فتخزى النصارى كلها-: ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ ﴾ أي: أنزهك يا رب ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ ﴾؛ لأن الله تعالى علام الغيوب، يقول إن كنت قلته في الدنيا لأن الآية كما قلنا في الآخرة إن كنت قلته فقد علمته ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدًا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾ [المائدة]؛ ولهذا قال عيسى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٥١﴾ [آل عمران]، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾

[المائدة] هٰذا الذي قاله لهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فيسأله الله تعالى في القيامة مع علمه تعالى أنه ما أمر إلا بالتوحيد؛ فيخزي الله بذلك من عبدوه من النصارى على رؤوس الأشهاد، وتقوم عليهم الحجة بتبرأ النبي الذي كانوا يعبدونه منهم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فهذا دليل على عبادة الأنبياء.

من الأدلة على عبادة الصالحين هٰذه الآية، وهٰذه الآية لا يعرفها طالب العلم غالبًا إلا إذا عرف سبب نزولها، وهي قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قبلها يقول تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ إلى قوله تعالى هنا: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧].

❍ **القول الأول**: روى البخاري عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن الآية نزلت في أناس من الإنس كانوا يعبدون أناسًا من الجن فأسلم الجن، والإنس لا يدرون أنهم أسلموا وتمسك الإنس بعبادة الجن، والجن قد أسلموا، ولهذا قال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أي: أولئك الذي يدعوهم الإنس من الجن قد أسلم الجن، ماذا فعل الجن بعد أن أسلموا؟ ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾؛ فتحول حالهم وصاروا مسلمين، الإنس الذين يعبدونهم ما علموا أنهم أسلموا فصاروا يعبدونهم مع أن الجن قد أسلموا.

❍ **القول الثاني**: أن الآية في عيسى ومريم والعزير وأمثالهم عليهم الصلاة والسلام ممن يعبدهم غيرهم وهم يأبون عبادتهم، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ معلوم أن مريم ليست من الأنبياء، فهي صدّيقة كما قال تعالى، فهٰذه الآية دالة على عبادة الصالحين.

وذكروا أيضًا في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ قرأ ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿أفرأيتم اللاات والعزى﴾ قال اللات هٰذا كان يلت السويق للحجيج فلما مات عكفوا على قبره، فتكون الآية على هٰذه القراء دالة على عبادة الصالحين أيضًا، أما على القراءة المعروفة: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ فهي كما ذكر المصنف دليل على عبادة الأشجار والأحجار، وهي قوله: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم] اللات والعزى كانت هٰذه من أكثر ما يشرك بها العرب، مناة كان دونهما في القدر ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ فهي دون اللات والعزى في نظر المشركين، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ

﴿وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١﴾ إنما كانوا يعبدونها قطعًا بلا بصيرة وبلا برهان، اللات والعزى كانت أصنامًا، وكانت مما نحت نحتًا وصار -عياذًا بالله- أهل الشرك يعبدونهما ويقسمون بهما؛ ولهذا أبو سفيان رضي الله عنه قبل أن يمن الله عليه بالإسلام، وعموم المشركين كانوا يحلفون باللات والعزى دائمًا؛ فيقول أحدهم واللات والعزى، وكان لهم معبود يعظمونه أيضًا هو هُبل فكانوا -كما قال أبو سفيان رضي الله عنه قبل أن يمن الله تعالى عليه بالإسلام- بعد أن وقع ما وقع من الهزيمة على المسلمين يوم أحد قال: «**اعلوا هبل**» -يقصد معبوده هٰذا-، وهٰذا كله قطعًا قبل إسلامه رضي الله عنه وأرضاه.

إذًا كانوا يعبدون الأشجار ويعبدون الأحجار ويعظمونها لأدنى سبب، يقول قائل منهم: إن هناك وليًا من أولياء الله عَزَّوَجَلَّ مس هٰذه الصخرة؛ فيأتون عند الصخرة ويطوفون بها ويذبحون لها، يقول إن هٰذا الولي مسها بيده، ولا يزال هٰذا موجودًا والله المستعان في مخرفي الرافضة، وفي مخرفي الصوفية إلى الآن يعظمون الصخور والغيران في الجبال والأشجار، ويزعمون أن فيها من البركة وما يسمونه بقبول النذر، أي: أنك إذا نذرت تحقق نذرك؛ فإذا نذرت لهذا الغار أو نذرت لهذه الأشجار إن ذلك يقبل منك، وأن النذر يتحقق؛ فإذا كنت أتيت بنذر ونذرت للشجرة أو للصخرة فإنك تجد فائدة ذلك ويتحقق ما نذرت وهٰذا عين الشرك الذي كانت عليه الجاهلية، نعوذ بالله من حال أهل الضلال.

من الأدلة على عبادة الأشجار حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى حنين، وقعت حنين بعد فتح مكة يقول: ونحن حدثاء عهد بكفر، أي: عدنا بالكفر قريب؛ لأن النبي بعد أن فتح مكة اتجه إلى حنين بعد ليالي معدودة فخرج معه مسلمة الفتح رضي الله عنهم؛ فكان للمشركين سدرة السدرة المعروفة هٰذه التي فيها النبق المعروف وكان المشركون يعظمون هٰذه السدرة وينوطون بها أسلحتهم، أي: أنهم يعلقون بها الأسلحة يزعمون أن الشجرة هٰذه تبارك السلاح فيكون ماضيًا، فكانوا يعلقون بها السلاح على هٰذا الاعتقاد الباطل عندهم، ما اسم هٰذه السدرة؟ اسمها ذات أنواط؛ لكثرة ما ينوطون أي: يعلقون بها، يقول رضي الله عنه: فمررنا بسدرة أخرى غير تلك السدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط أي: أنهم طلبوا أن يجعل لهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شجرة يعظمونها كما كان المشركون يعظمونها.

۞ **قال المؤلف: «الحديثَ».**

ما معنى قوله الحديث أو قوله الآية؟ أي: أكمل الحديث هٰذا المعنى؛ هكذا يقول مثلًا قوله تعالى: ﴿

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ الآية، أي: أكمل الآية ولهذا تنصب ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ الآية، أي: أكمل الآية، وهنا يقول الحديثَ بالنصب أي أكمل الحديث، ما هو إكمال الحديث؟ لما طلبوا من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ هٰذا استعظم هٰذا الأمر لأنه طلب شركي وكبر عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فقال: «**اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السَّنَنُ، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾**»؛ لأن قوم موسى بعد أن أنجاهم الله تعالى من فرعون، مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهًا كما لهؤلاء المشركون إلها؛ فشبه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ طلب هؤلاء أن يجعل لهم سدرة يعظمونها كما كان المشركون يعظمون تلك السدرة وهي شجرة من الأشجار شبهه بطلب قوم موسى لموسى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يجعل لهم آلهة، أن يجعل لهم إلها معبودا كما لأولئك المشركون آلهة، ثم قال: «**اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السَّنَنُ، لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**» وهٰذا الذي وقع في الأمة كما سيأتي إن شاء الله الكلام عليه في «فضل الإسلام» إن شاء الله.

دل ذلك على أن من عبد غير الله أيًا كان المعبود ملكًا أو نبيًا أو صالحًا أو جنيًا أو شجرًا أو حجرًا؛ فإنه مشركٌ قد حرم الله تعالى عليه الجنة، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كما في القاعدة هٰذه لم يفرق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قاتل النصارى، وقاتل المشركين عباد الأوثان، وقاتل المشركين بأصنافهم وأنوعهم ولم يفرق بين من يعبد شجرًا أو حجرًا أو يعبد ملكًا أو يعبد نبيًا؛ فدل على أنهم جميعًا حكمهم واحد؛ فمن صرف العبادة لغير الله تعالى فقد أشرك أيًا كان المعبود الذي أشرك به.

۞ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الأَوَّلِينَ، لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ، وَمُشْرِكُو زَمَانِنَا شِرْكُهُمْ دَائِمٌ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّة؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]**».

هٰذه القاعدة الأخيرة:

❍ **القاعدة الأخيرة يقول فيها**: المشركون في زمننا هذا أغلظ شركًا من المشركين الأولين، لِمَ؟ ذكر واحدًا من المبررات قال: الأولون كانوا يشركون في الرخاء فقط، أما إذا كانوا عند الشدائد فإنهم يخلصون لله ولا يدعون إلا الله، المشركون المتأخرون يشركون دائمًا في الرخاء والشدة، ولا شك أن من تعلق قلبه

بغير الله تعالى في الرخاء وفي الشدة أغلظ شركًا ممن إذا وقعت الشدة تعلق قلبه بالله، وإن كان الجميع مشركًا؛ فالذي تعلق قلبه بغير الله تعالى بحيث يصرف له العبادة حتى في الشدائد التي إذا وقعت للمشركين بنص القرآن أخلصوا، الذي يستمر على شركه حتى في الشدائد أخبث وأسوأ شركًا وأغلظ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت]، **الفلك**: هي السفينة، إذا ركبوها لأن السفينة مقام ضرورة؛ فإنهم لا يسألون إلا الله وحده، ولا يدعون سواه؛ فلما نجاهم إلى البر هٰذا حال الأمن والسلامة عادوا إلى شركهم، أما المشركون المتأخرون فإنهم -والعياذ بالله- يشركون في الرخاء وفي الشدة.

وقد ذكر علامة العراق السويدي الشافعي -رحمة الله تعالى عليه- صورة عجيبة في شرك المشركين قال: إنهم إذا طُلب منهم أن يحلفوا بالله عَزَّوَجَلَّ عند القضاة على أمر قد جحدوه حلفوا بالله؛ فإذا طلب منهم أن يحلفوا بغير الله عَزَّوَجَلَّ ممن يعظمون امتنعوا وأقروا فدل على أن تعظيمهم لغير الله أشد من تعظيمهم لله؛ لأنه يقال له: الآن هٰذا المدعي يدعي عليك أنه قد أقرضك فيقول: أبدًا ما أقرضني يقال: احلف بالله، فيقول: والله الذي لا إلٰه إلا هو إنه لم يقرضني، فإذا قيل له: احلف بالسيد البدوي أو بالحسين أو بعلي أو بعبد القادر قال: لا، أنا أقر أنه أقرضني، على أي شيء يدل هٰذا؟ يدل على أن هؤلاء في قلبه أعظم من الله عَزَّوَجَلَّ -نسأل الله العافية-؛ لأنه استهان بالحلف بالله عَزَّوَجَلَّ فحلف بالله كاذبًا؛ فلما ذكر له هٰذا حتى ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا ذكر اسم هؤلاء قال يرتعد ويخاف ويقول: أنا أقر، ولما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ حلف بالله تعالى غير مكترث ولا مبالي؛ فدل -عياذًا بالله- على أنهم قد تعلقت قلوبهم بغير الله تعالى هٰذا التعلق العظيم حتى صار تعظيمهم في قلوبهم أشد من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، ولا شك أن هٰذا شرك أغلظ من شرك المشركين.

الحاصل أن:

قول المؤلف: «أن مشركي زماننا أغلظ».

لا شك أنه صواب، وبعض من تحزلقوا من وردة الروافض وأضرابهم ممن قالوا: كيف يقول الشيخ محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هٰذا الكلام لا يستطيعون أن يجيبوا على هٰذه التقريرات، نعم، الذي يشرك في الرخاء والشدة أقبح وأغلظ شركًا من الذي إذا جاءت الضرورة أخلص لله، وعلم أنه لا ينجيه إلا الله، وهٰذا بعينه هو الذي دعا صفوان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى أن يسلم، صفوان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه بن أمية لما دخل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة ماذا

فعل؟! فر إلى الحبشة ووجد سفينة فركبها، وأراد أن يذهب إلى الحبشة ويبعد عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، مضت السفينة، لما مضت السفينة تقاذفها الموج؛ فلما تقاذفها الموج صار الذين في السفينة يقولون: لا تدعوا إلا الله؛ فإنه لا ينجيكم في هٰذه الحال إلا هو، يقول الراوي: ففهمها صفوان أو هو عكرمة أنا نسيت إما عكرمة أو صفوان رضي الله عن الجميع لعله عكرمة بن أبي جهل ففهمها وقال: والله إن كان لا ينجي من ظلمات البحر إلا الله فلا ينجي من ظلمات البر إلا الله، اللّٰهمَّ إن لك عليَّ عهدًا إن نجوت أن آتي محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فأضع يده في يدي فأجده برًا رحيمًا، فرجع رضي الله عنه ودخل مكة وأقر بالإسلام؛ لأن هٰذه هي دعوة رسول الله لما جاء هٰذا الموقف فهم قال: إذا كنا نلجأ إلى الله في الشدة؛ فلماذا لا نلجأ إليه في الشدة والرخاء هٰذا محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يدعونا إلى هٰذا، إذًا كلامه حق؛ فالذي عند توحيد في الشدة قد يدعوه توحيده في الشدة إلى أن يوحد في الرخاء، أما الذي عنده شرك في الشدة والرخاء فمتى يوحد -نسأل الله العافية والسلامة-، فلا شك أنهم أغلظ شركًا، ثم إن من وصلته النصوص القرآنية الجلية الدالة على وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة ثم يأباها ويرفض ويأبى إلا أن يشرك أخبث شركًا من مشرك من الأولين الذين لم تبلغهم الدعوة؛ فكون ذاك يشرك وهو لم تأته هٰذه الآيات العظيمة في كتاب الله دالة على إبطال الشرك هٰذا كمشرك لكن الذي وصلته الآيات القرآنية وأبى الانصياع لها وأصر على الشرك أخبث شركًا أغلظ شركًا من الذي لم تبلغه الآيات.

وبذلك ينتهي هٰذا الكتاب، وبإذن الله سنواصل اليوم أيضًا من كتاب «**فضل الإسلام**» من الآن إن شاء الله؛ لأننا سنحاول أن نختصر إن شاء الله تعالى في المدة إن تمكنا من إنهاء الكتاب هٰذا والكتاب الذي يليه بعون الله تعالى، على أمل أن يكون هناك وقت إن شاء الله تعالى لفضيلة الشيخ علي القصير في كتابه «**أخصر المختصرات**» لأنه احتاج وقتًا فسنحاول إن شاء الله أن ننتهي بين السبت غدًا والأسبوع القادم ويبقى إن شاء الله إن الله يسر الأسبوع الذي يليه لفضيلة الشيخ علي إن شاء الله.

وَاللهُ أَعْلَمُ؛ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

ألقيَّ هذا الدرس من ليلة الثامن من شهر جمادى الأولى
سنة ستة وثلاثين وأربع مئة وألف
في دورة التعليم الميسر بمسجد النخيل،الرياض
حرسها الله دارًا للإسلام والسنة.